ملامحُ الإصلاح التربوي في تفسير ابن عاشور

د. ناجي فرج التكوري*

مقدمة:

تضمن القرآن الكريم منهجًا تربويًا كريمًا يسمو بالإنسان، وينظم حياته من جميع أبعادها، سواء كان من جهة صلته بربه أم من جهة علاقته بالكون وما حواه، ومجتمعه، وأمته، والناس أجمعين.

وقد تعددت جوانب تفسير القرآن الكريم، وتنوعت اتجاهاته، واتخذت ألوانًا مختلفة، اصطبغت بها التفاسير بحسب اهتمامات كل مفسر، ما بين نحوي وبلاغي وعلمي وفقهي وتربوي ...إلخ؛ لذا كان لا بد من الالتفات إلى دراسة الآراء الإصلاحية، والأفكار التربوية عند علماء المسلمين الذين أثّروا في مجتمعهم؛ لعلنا نقتفي آثارهم.

ولا شك أن لدراسة الآراء التربوية عند المصلحين والمُربّين المسلمين -كالإمام ابن عاشور- أهميةً بالغةً في بناء الإيمان في النفوس بما يفضي إلى تهذيب السلوك الإنساني وَفق مبادئ المنهج التربوي الإسلامي، فمن أراد أن يفهم النظريات والاتجاهات والنظم التربوية الحديثة، فليعلم أنها وليدة مخاض تاريخي طويل، وتجربة إنسانية بعيدة الجذور، وقد لا نفقه معنى الكثير من ثمرات التربية الحديثة إذا لم نعرف أصولها وجذورها التاريخية، ومن هنا لا بد لنا من العودة إلى التراث العربي الإسلامي، والعمل على إحياء هذا التراث بما يفيدنا في الوقت الحاضر وبناء المستقبل.

وفي هذا الإطار؛ سيحاول الباحث من خلال هذا البحث: (ملامح الإصلاح التربوي في تفسير ابن عاشور) أن يكشف عن بعض الخفايا والأسرار المتعلقة بالجانب التربوي في تفسيره، والإسهام في إبراز ملامح هذا الجانب، والعناية به على وجه الخصوص؛ لما له من أثر فاعل في تقوية دواعي الإيمان، وتهذيب النفوس وتزكيتها، وهدايتها إلى أحسن الأخلاق.

---

* محاضر في تفسير القرآن وعلومه، بكلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية.

ومما يُلاحظ أن هناك ندرة حقيقية في الدراسات العلمية التي تتعرض للجوانب التربوية والإصلاحية عند علماء المسلمين، والتي يمثل الإمام ابن عاشور أحدها، وهذا ما لمسه الباحث أثناء بحثه عن كتابات خاصة بالإمام، وهو ينعكس بشكل خاص في الغياب الواضح لمعالم آراء علماء المسلمين التربوية، وقد فوّت ذلك فوائدَ جمةً حُرمت منها مناهجنا التربوية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في رسم طرق الإصلاح التربوي للمشاكل التي تواجه الفرد والمجتمع، وبخاصةٍ في مجال التعليم، في ضوء القواعد التربوية التي رسمها الإمام ابن عاشور لتشكيل مرجعية يرجع إليها عند الحاجة.

وقد اتبعتُ في هذا البحث المنهج الاستقرائي، والمنهج الاستقرائي التحليلي وقسمتُه إلى مقدِّمة ومطلبين، وهذا بيانها:

المطلب الأول: ابن عاشور وجهوده في الإصلاح التربوي، ويندرج تحته فرعان:

الفرع الأول: التعريف بالشيخ ابن عاشور.

الفرع الثاني: جهوده في الإصلاح التربوي.

المطلب الثاني: ملامح الإصلاح التربوي في تفسير ابن عاشور، ويندرج تحته فرعان:

الفرع الأول: المقاصد التربوية للقرآن الكريم في رأي ابن عاشور.

الفرع الثاني: ملامح من الإصلاح التربوي في تفسيره.

وفي الختام أسأل الله الذي جلت حكمته ووسعت رحمته كل شيء أن يمن علينا بالإخلاص والقبول إنه سميع مجيب. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المطلب الأول- ابن عاشور وجهوده في الإصلاح التربوي:

الفرع الأول- التعريف بالشيخ ابن عاشور:

ليس من غرض البحث أن أعرض بالدراسة والتحليل لترجمة الإمام محمد الطاهر ابن عاشور الذي عُمِّر في هذه الحياة من سنة: (1296هـ/1879م) إلى سنة: (1393هـ/1973م)[1]، فلقد ذاع صيته في الآفاق، واشتُهر حتى صار غنيا عن التعريف، ويكفي أن نذكر في ترجمته ما وصفه به الشيخ محمد عبده حينما قال: "سفير الدعوة في الجامعة الزيتونية"[2]، كما كان يعدّه المصلح الجزائري الشيخ محمد البشير الإبراهيمي "من الأعلام الذين يعدُّهم التاريخ الحاضر من ذخائره"[3]، وإنما أوثر أن أتناول في هذا البحث جانبا محددا من حياته الزاخرة، وفكره الحافل بالعطاء العلمي، أعني: دعوته إلى الإصلاح التربوي والتعليمي، الذي أنفق فيه أخصب سِنيّ عُمُره، واستطاع أن يسهم بمكوناته منذ أوائل القرن العشرين، من تأصيل الحركة الإصلاحية التي انتشرت وازدهرت في الديار الإسلامية منذ القرن التاسع عشر، وذلك من خلال تصوراته الإصلاحية التي أودعها في كتابه: «أليس الصبح بقريب».

وبالفعل؛ فقد أثرى ابن عاشور -كما تفصح ترجمته ومسيرة حياته- هذا المشروع الإصلاحي التربوي والتعليمي، ليس بمجرد هذه التصورات النظرية التي يمتلئ بها كتابه فحسب، بل بالجهود العلمية المضنية التي بذلها في نشرها، والدعوة إليها في أثناء مباشرة التدريس منذ حصوله على شهادة التطويع سنة: (1317هـ/ 1899م)، ثم توليه مشيخة جامع الزيتونة سنة: (1351هـ/1932م)، ومشاركته الحيوية في الحياة العامة في بلاده،

1- انتظم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في جامع الزيتونة سنة: (1310هـ/1892م)، وتخرج فيه سنة: (1317هـ/1899م)، وسُمّي شيخًا للجامع مرتين، كما تقلد عديد مناصب القضاء والإفتاء، فسُمّي قاضي القضاة، ثم شيخ الإسلام، واشتهر بالمشاركة في فن الخطابة والتأليف، ومن أبرز مؤلفاته: تفسير "التحرير والتنوير" الذي نحن بصدد دراسته، و"مقاصد الشريعة الإسلامية"، و"أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، و"الوقف وآثاره في الإسلام"، وله عديد المؤلفات في فن تحقيق كتب التراث العربي والإسلامي. ينظر ترجمته في: "تونس وجامع الزيتونة"، لمحمد الخضر حسين، دمشق، المطبعة التعاونية، 1971م، ص: 10، والحركة الأدبية والفكرية في تونس، لمحمد الفاضل ابن عاشور، الدار التونسية، تونس: 1972م، ص: 22، وعيون الأبصار، لمحمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ص: 30.

2- التفسير ورجاله، للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى: 2008م، ص: 199.

3- عيون الأبصار، ص: 628.

وكلها آفاق للعمل، حَرَصَ على أن يبرز من مجاليها تصوره النظري، ويجلو خلالها علمه الواسع من معارض عملية تطبيقية، كما سيتبين في الصفحات القادمة.

الفرع الثاني- جُهوده في الإصلاح التربوي:

إذا تحدّثنا عن ابن عاشور ودوره في الإصلاح التربوي؛ فإننا نجده قد كرَّس حياته كلها للتجديد والإصلاح في مختلف المجالات والميادين، ويكفي أن نشير هنا إلى ميدان التعليم -أنموذجًا للإصلاح- عند ابن عاشور، فقد أحدثت آراؤه في مجال التعليم من خلال (جامع الزيتونة) نهضة في علوم الشريعة والتفسير والتربية، وكان لها أثرها البالغ في استمرار (جامع الزيتونة) في العطاء والريادة.

فالتعليم -عمومًا- يحتل المكانة الكبرى في مسالك النهضة وأسبابها، بل في الاجتماع الإنساني عامة؛ إذ إنه يفيد -على رأي ابن عاشور-: "ترقية المدارك البشرية وصقل الفطر الطيبة؛ لإضاءة الإنسانية وإظهارها في أجمل مظاهرها، فيخرج صاحبها عن وصف الحيوانية البسيط -وهو الشعور بحاجة نفسه خاصة- إلى ما يفكّر به في جلب مصلحته ومصلحة غيره بالتحرز عن الخلل والخطأ بقدر الطاقة، وبحسب منتهى المدنية في وقته"[1].

ولا شك أن هناك غاياتٍ للمشتغلين بالتعليم يتحصلون عليها من مزاولته، سواء أكانت هذه الغايات دينية أم دنيوية، لكن الغاية الأسمى والمقصد الأعظم في نظر ابن عاشور هو "إنتاج قادة للأمة في دينها ودنياها، وهداة هم مصابيح إرشادها، ومحاصد قتادها، ومهدئو نفوسها إذا أقلقها اضطراب مهادها"[2].

وينبغي الإشارة هنا إلى أنه إنّما خُصّ جامع الزيتونة بالذكر دون غيره من مؤسسات التعليم الديني لاعتبارين:

أولهما: أن الشيخ ابن عاشور أدرى بتاريخ الجامع وبحاله ورجاله؛ إذ فيه تخرج، وبه انتصب للتدريس، فخبر أوضاعه من واقع التجربة والمعاناة الشخصية[3].

1- مقاصد الشريعة الإسلامية، لمحمد الطاهر ابن عاشور، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثالثة: 2011م، ص: 33.

2- أليس الصبح بقريب، لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة: 2010م، ص: 15.

3- ارتبط الشيخ ابن عاشور بجامع الزيتونة ارتباطًا وثيقًا منذ أن كان طالبًا نابهًا متميزًا في تحصيله العلمي إلى أن اختير مدرسًا بالجامع، وترقى في ذلك حتى أضحى من ذوي الرتب العالية، وخاض مناظراته متقدما على جميع أقرانه،=

ثانيهما: أن جامع الزيتونة يمثل أنموذجًا لمؤسسات التعليم الإسلامي، يصح في شأنها ما يصح في شأنه من تقدير، وينطبق عليها ما ينطبق عليه من أحكام.

ولقد أدرك الشيخ ابن عاشور -رحمه الله- من خلال ممارسته للتعليم -متعلمًا ومعلمًا بجامع الزيتونة- أنه بحاجةٍ إلى إصلاحٍ واسعِ النطاق، على نحوٍ يشمل جوانبه جميعا: نظام التعليم، ودرجاته، ومواده، والكتب المعتمده في التدريس، والمدرسين من حيث تأهيلُهم ومدى مناسبتهم لدرجات التعليم ومستويات الدارسين، وتدرج المعارف التي تدرس وتراتبها[1].

وقد بدأ الشيخ ابن عاشور بمساعدة ثلةٍ من رفاقه بجامع الزيتونة في تخطيط مراحل الإصلاح والتأهيل التربوي، وتطبيق النظم التي يراها كفيلة بتحقيق الهدف الذي يصبو إليه؛ للخروج بهذا الجامع من كبوته، فهو يرى -رحمه الله- أن إصلاح حال الأمة لا يكون إلا بإصلاح مناهج التعليم[2].

فقام الشيخ بإدخال بعض الإصلاحات على الناحية التعليمية، شملت إعادة النظر في الكتب الدراسية التي كانت تدرس بجامع الزيتونة، والنظر في أساليب التدريس ومعاهد التعليم، وقد اهتمت لجانٌ من شيوخ الزيتونة كان الشيخ على رأسها بهذا الغرض، ونظرت في الكتب الدراسية على مختلف مستوياتها، وعمل الشيخ على استبدال كتب كثيرة كانت منذ عصور ماضية تدرس، وصبغ عليها قدم الزمان صبغة احترام وقداسة موهومة.

حرص ابن عاشور على خاصتي التعليم الزيتوني: الصبغة الشرعية، واللغة العربية، وللوصول إلى هذا الهدف يرى ضرورة تخصيص كتب دراسية شهد لها العلماء بغزارة

=ومارس الشيخ إلى جانب التدريس أعمالا إدارية ووظائف شرعية عالية، فتم تعيينه في النظارة العلمية، ثم قاضيا وكبير أهل الشورى في المجلس الشرعي، وباشر مشيخة الجامع سنة 1932م، ثم أسندت إليه ثانية سنة: 1945م، حيث بقي بها إلى سنة: 1952م، وعُيّن بعد ذلك عميدًا لجامعة الزيتونة من سنة: 1956م إلى سنة: 1960م. ينظر: الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، 174/6، وينظر: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، محمد الفاضل ابن عاشور، الدار التونسية، تونس: 1972م، ص: 76، وينظر: أليس الصبح بقريب للمؤلف، ص: 8-9.

1- ينظر: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة، لمحمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس: 2008م، ص: 32.

2- المصدر نفسه، ص: 33.

هذا العلم، وإحكام الصنعة، وتنمية الملكات في التحرير؛ ليتخرج من الزيتونة العالم المقتدر على الخوض فيما درسٍ من المسائل وتمحيصها ونقدها[1].

واهتم الشيخ ابن عاشور بعلوم الطبيعة والرياضيات، فأصبحت ضمن المواد التي تدرس بالجامع، كما راعى في المرحلة التعليمية العالية التبحر في أقسام التخصص، وبدأ التفكير في إدخال الوسائل التعليمية المتنوعة[2].

كذلك حرص الشيخ ابن عاشور -ضمن مشروع الإصلاح التربوي في مجال التعليم- على زيادة عدد الفروع الزيتونية الذي ارتفع في مدة سبع سنوات: (1949-1956م) من ثمانية إلى خمسة وعشرين، (منها اثنان للفتيات في تونس وصفاقص)، وصار عدد تلامذة الزيتونة وفروعها يناهز العشرين ألف تلميذ في حدود سنة: 1956م[3].

كما امتدت شبكةُ فروع الزيتونة إلى القطر الجزائري بإنشاء فرعين في مدينة قسطنطينة[4].

وكان الشيخ حريصًا على أن تكون هذه الفروع تحت مراقبة إدارة مشيخة الجامع رأسًا، بعدما كانت ترجع شؤونها بالنظر إلى السلط الشرعية الجهوية.

تمثّلت كذلك برامج إصلاحه في تحسين أوضاع الطلبة المعيشية والاجتماعية؛ لما لها من قيمة في رفع معنويات الطلبة الزيتونيين إزاء إخوانهم الميسرين، فأنشئت مطابخ ببعض المدارس مكنت الطلبة من تناول الطعام ثلاث مرات في اليوم بأسعار زهيدة، مع أن ذلك لم يكن شيئًا يذكر أمام البنايات القديمة وضعف مالية إدارة المشيخة، وهي حقيقة عاشها كل الزيتونيين[5].

وهكذا نرى أن الشيخ قد صرف غايةَ حذقه ومواهبه إلى وضع برامج تحقق حياة هذا التعليم على حالة كاملة، وتحقق مقاصد طالبيه في معترك حياةِ عصرهم، وتحقق مقاصد الأمة من خريجي هذا التعليم.

1- ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة، ص: 198.

2- ينظر: أليس الصبح بقريب، ص: 26.

3- ينظر: مقاصد الشريعة، ص: 25.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص: 25.

5- ينظر: التفسير ورجاله، لمحمد الفاضل ابن عاشور، ص: 200.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ابن عاشور قد ذكر في كتابه: «أليس الصبح بقريب» الأسباب التي أدّت إلى تدهور التعليم وفساده، وقد ذكر من بين هذه الأسباب، ومن أبرزها، قصور التعليم عن العناية بالجوانب التربوية والأخلاقية التي من شأنها أن ترقى بحياة المتعلم، وتسعد روحه، كما تحفظ على الأمة كيانها وتماسكها، وفي هذا السياق يقول ابن عاشور: "عرو التعليم عن مادة الآداب وتهذيب الأخلاق، وشرح العوائد النافعة وغيرها، هو السبب الذي قضى على المسلمين بالانحطاط في الأخلاق والعوائد، وقد اعتنى المسلمون في صدر الإسلام بذلك، فتلقوا آداب القرآن، وهدي الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم عززوه في صدور نهضتهم بعلوم آداب الشريعة والمواعظ، أما إهماله بعد ذلك فسببه تأخر المسلمين وقصور أنظارهم، واعتقادهم أن العلم منحصر فيما تتضمنه القواعد العلمية كالنحو والفقه..."[1].

ويرى ابن عاشور أنه من المؤسف جدًا أن يتصدر أناسٌ للتعليم، وهم بعيدون كل البعد عن الفضائل ومكارم الأخلاق فيقول: "ومن العار الكبير أن ترى كثيرًا ممن ينتصب لتعليم النشء تعجبك أجسامهم، وتبهجك بزتهم، وتعظم صورهم، ولكن ما بينك وبين أن ترمقهم بضد ذلك، إلا أن تحاكهم وتعاشرهم أو تجادلهم، فترى تلك الهياكل العظيمة فارغة من الفضيلة ومكارم الأخلاق والمروءة، وبذلك رزئت الأمة أنفع عنصر في حياة الأمم وكمالها وهو الأخلاق"[2].

وتأسيسًا على ذلك؛ دعا ابن عاشور إلى دعم العملية التعلمية في جامع الزيتونة وفي غيره بالأصول الأخلاقية المثلى التي تهذب نفوس المدرِّسين والدارسين على حد سواء، وطريق ذلك كما رسمه في خطته "هو: التدريب على ضروب الحكمة، ونقد مقتضيات الزمان، وعلو الهمة، والغيرة للحق، والترفع عن سخائف المطامع، وعن ضيق الصدر الذي ينشأ عنه الحسد والظلم والخصام، والتلظّي من كل ما يخالف المقصد، والإقدام، والحزم، وأصالة الرأي، وحب النظام في جميع أحوال الحياة، وعدم معاداة القوانين، والعمل، وحب التناسب في المظاهر كلها، وإدراك الأشياء على ما هي عليه،

1- أليس الصبح بقريب، ص: 112.

2- أليس الصبح بقريب، ص: 112.

والتباعد عن الخفة والطيش، وعن الجمود والكسل، وسوء الاعتقاد، والأمور الوهمية، بحيث يكون العدل في جميع الأشياء صفة ذاتية لهم"[1].

وقد أعطى ابن عاشور لمنهجه بهذا المنظور الأخلاقي مفهومًا تربويًا عاليًا، كما فعل الشيخ محمد عبده حينما انتقد مناهج الأزهر والمدارس الأميرية التي كانت تولي المادة العلمية عناية أكبر من العناية التي توليها للتربية[2].

وبعد أن ذكر ابن عاشور الأسباب التي أدّت إلى فساد التعليم وتأخره، -وهي كثيرة، وقد بينتُ منها ما يتعلق بالجانب التربوي- ذكر في آخر كتابه: «أليس الصبح بقريب» جملة من الإصلاحات في مجال التعليم والتربية من شأنها أن تُسهم في النهوض بالتعليم والرفع من مكانته وتطويره؛ ليلائم متطلبات العصر ومستجداته.

وقد شملت هذه الإصلاحات وجوها متعددة، ونواحي مختلفة، فمن بين ما ذكره ابن عاشور من وجوه الإصلاح: إصلاح التآليف والكتب، فإنّ التآليف في نظر ابن عاشور هي المعلّم الأول للتلميذ، والمذكّر والمرشد للمدرس، وهي أجدر أن تعطي لفتة من الإصلاح؛ إذ هي الفاعل القوي في نفس التلميذ، وعلى مرتبتها تكون نفوس التلامذة[3]. وإصلاح التآليف يكون بعدم الاعتماد على القديم وحده، واعتقاد أن ما أتى به الأقدمون هو قصارى ما تصل إليه قُدر البشر، ويصبح المُعلّم عالة عليهم في العلم والعبارة والصورة والاختيار، ويرى استحالة البلوغ إلى منازلهم. بل على المعلم أن يعلم -كما يرى ابن عاشور- أن القدامى إنما غرسوا لنُنمّي، وأسّسوا لنشيد، وابتدأوا لنزيد[4].

فلا بد من العناية بالتآليف، والارتقاء بها، وتدليلها؛ لكي تساير تبدلَ العصور، وتقدم العلوم، وتغير الأحوال، وتجدد الأفكار والآراء.

وإصلاح التآليف يكون -أيضًا في نظر ابن عاشور- بترك التطويلات التي يسلكها المؤلفون بزيادات خارجة عن الموضوع، وتخليطِ العلوم بعضها ببعض، فالتلميذ مثلًا يقرأ

1- المصدر نفسه، ص: 113.

2- ينظر: منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي، لمحمد مسعود جبران، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد: الخامس: 1988م ص: 223.

3- ينظر: أليس الصبح بقريب، ص: 142.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص: 145.

الكتّاب في مبادئ النحو، فلا يلبث أن يجد نفسه في نوادر ذلك العلم، والتلميذ لم يعرف بعدُ معنى النحو، فكيف به إلى دقائق هذا العلم؟!.

ويقترح ابن عاشور في سبيل إصلاح التآليف تشكيل لجنة من كبار العلماء للنظر في الكتب المنهجية وإصلاحها، وإضافة ما تحتاج إليه من علوم ومعارف وآداب تربوية تقتضيها طبيعة العصر وظروف الحياة، وفي هذا السياق يقول ابن عاشور: "ولا بد لذلك من تأسيس لجنة من نحارير العلماء؛ لتنظر خلل الكتب وإصلاحها، وإحياء ما اندرس منها، ولترجمة ما نحتاجه من كتب العلوم التي تقدمت تقدمًا واسعًا على ما تركها فيه سلفنا، مثل: كتب الهيئة، والطبيعة والجغرافيا وطبقات الأرض، مع رعي المطابقة لمقتضى حال العصر من بث فضائل الأخلاق والآداب الجميلة التي أصبحنا في احتياج إليها مع التحريض على العمل"[1].

وما أحوج جامعاتنا اليوم إلى مثل هذه المقترحات وهذه الأفكار لتطوير مناهجها ومقرراتها الدراسية التي لم تعُد تناسب واقعنا ومتطلبات عصرنا، فهي بحاجة إلى تجديد وتحديث على أيدي علمائنا ومشايخنا، كما دعا إلى ذلك شيخنا ابن عاشور رحمه الله.

ومن وجوه الإصلاح التي ذكرها ابن عاشور في العملية التعليمية والتربوية: إصلاح المعلمين؛ فإصلاح حالهم ركن عظيم من إصلاح التعليم، لذا فابنُ عاشور يؤكد ضرورةَ ألا يُنتخب للتعليم إلا من تمّرس به، وعرف مراتب الأفكار؛ ليعلم التلامذة كيف ينتبهون إلى دروسهم ويفهمونها، بدلا من الضجر الذي يصيبهم الآن فيها، ويقلل النبوغ فيهم، ولذلك يجب أن تدرس طرق التدريس قبل انتصاب المدرس للتدريس[2].

ويرى ابن عاشور أنّ على المُعّلم أيضًا أن يبتعد في دروسه عن المسائل السطحية التي لا طائل من ورائها، وهي التي تجعل في نفس التلميذ إما اليأس من فهم العلم، أو اعتياد القناعة بما لا يفهم، ودّلل على ذلك بمن يذكر الخلاف في متعلق الجار في (بسم الله الرحمن الرحيم) وأوجه الإعراب البالغة بالضرب نيفا وسبعين، وحقيقة التعريف في (الحمد لله) وهل هو استغراق أو جنس أو عهد، وهل الإعراب لفظي أو معنوي، إلى

1- المصدر السابق، ص: 153.

2- ينظر: أليس الصبح بقريب، ص: 205.

غير ذلك من المسائل التي يرى ابن عاشور أن فيها إضاعةً للوقت، وتتعلق بالقشر دون اللباب[1].

وينبغي للمعلم -كما يرى ابن عاشور- أن يُحسّن العلاقة بينه وبين التلميذ، فيبتعد عن التكلف والانقباض الذي يتصنّعه بعض المدرسين في مشيتهم وكلامهم ولباسهم، فيحول دون النفع بعلمهم، وتجد -على الضد من ذلك- في بعض المدرسين من رثاثة الهيئة، واضطراب الحركات، وسخافة الحديث، ناهيك عن تعلق بعضهم بسفاسف الأمور، وانطواء البواطن على بغض الزملاء، والنبز، وإشاعة المساوي، وغير ذلك من الأمور التي ينبغي أن يترفع عنها المعلم؛ حتى تسمو مكانته بين طلابه[2].

ومن أخص واجبات الأساتذة -كما يذكر ابن عاشور- أن يكونوا قدوةً لتلاميذهم، "فمن الواجب أن يعرّفوهم حب العلم، والسعي لإصلاح أنفسهم وأمتهم، وأن يُنشئوهم على خلال المصابرة والشجاعة، والحرية، والمروءة، واحترام الحق، والعدالة، والعفاف، وكرم الأخلاق؛ حتى يكونوا كلهم أعضاءً نافعةً عاملة، سواء منهم من بقي في صناعة العلم أو من انصرف إلى الأشغال الأخرى"[3].

وهكذا نرى ابن عاشور –رحمه الله- قد أسهم متفانيا مدة نصف قرن بنشاط خصب في مشروعه التربوي الرامي إلى إصلاح التعليم، وتدبير برامجه، والوقوف على أهم المشاكل والعراقيل التي تعيق تقدمه، وإيجاد الحلول الناجحة والنافعة التي تسهم في رُقيّ التعليم وازدهاره.

المطلب الثاني- ملامح الإصلاح التربوي في تفسيره:

الفرع الأول- المقاصد التربوية للقرآن الكريم في رأي ابن عاشور:

يرى ابن عاشور -رحمه الله- أنَّ من مقاصد نزول القرآن -وهو مقصد أعلى- إصلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية للناس كافة، يقول في المقدمة الرابعة ما نصه: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة؛ رحمة لهم، لتبليغهم مراد

1- ينظر: أليس الصبح بقريب، ص: 204.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص: 206.

3- المصدر نفسه، ص: 207.

الله، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية"[1]، ثم فصّل القول في المراد بصلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية، مركزاً على البعد التربوي فيهما فيقول: "فالصلاح الفردي يعتمد على تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأنَّ الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي: العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي؛ إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه ...، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع"[2].

والممعن للنظر في قول ابن عاشور؛ يجد أنه يُشير صراحة إلى أهداف التربية الإسلامية المتمثلة في إعداد العبد الصالح وإعداد الأمة المسلمة.

فإذن إصلاح الاعتقاد وتعليم المنهج الصحيح هو من المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها، وهو من أعظم الأسباب لإصلاح الخلق -كما يرى ابن عاشور-؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[3]، فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم، وليس هو من فعل الآلهة، ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة[4].

ويرى ابن عاشور -رحمه الله- أن الأمة لا يستقيم أمرها، ولا يتحسن حالها ما لم تكن مكارم الأخلاق هي الغالبة على جمهورها، والسائدة في معظم أمورها، وفي ذلك يقول: "ولا يكاد ينتظم أمر الاجتماع كمال انتظامه، ولا ترى الأمة عقدها مأمونًا عن انفصامه ما لم تكن مكارم الأخلاق غالبة على جمهورها، وسائدة في معظم تصاريفها

1- التحرير والتنوير، لابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: 38/1.

2- التحرير والتنوير، لابن عاشور: 38/1.

3- سورة هود، آية: 101.

4- التحرير والتنوير، 40/1.

وأمورها، لأن ملاك مكارم الأخلاق هو تزكية النفس الإنسانية؛ أعني: ارتياض العقل على إدراك الفضائل، وتمييزها عن الرذائل الملتبسة بها، وارتياضه أيضًا على إرادة التحلي بتلك الفضائل، وعدم التفريط في شيء منها؛ لاعتقاده أن بلوغ أوج الكمال لا يحصل إلا بذلك التحلي"[1].

ويمكن القول: إن أعظم ما قصد إليه الإسلام من دعوته إلى مكارم الأخلاق وتهذيبها هو العناية بتربية النفس وإكمالها، وتدريبها على متابعة الهدى والإرشاد، الذي يشهد العقل السليم بحقيقته وصلاحه ونفعه، فذلك الإرشاد يتلقاه المسلم من الهدى الديني المعرب عن الإرشاد، المعصوم عن الخطأ[2].

الفرع الثاني- ملامح من الإصلاح التربوي في تفسيره:

من خلال القراءة المتأنية لتفسير التحرير والتنوير؛ يتضح للقارئ أن ابن عاشور انطلق وهو يكتب تفسيره من ثقافة موسوعية شاملة متعددة الجوانب، وفي شتى نواحي المعرفة الإنسانية من آداب وعلوم ومعارف عربية وأجنبية، وثقافة دينية وأدبية وتاريخية وسياسية واقتصادية ونفسية وعلمية، وقد استخدم هذه الجوانب في تفسيره للقرآن الكريم، وانعكس ذلك على فكره التربوي الذي جاء بين سطور تفسيره، معبرًا عن روح الإسلام أصيلًا غنيًا بالمفاهيم والآراء والتصورات والمبادي التربوية المتنوعة.

فقد كان ابن عاشور يُركّز -عند تفسيره للآيات القرآنية- على الجانب العملي لمعناها، والإيحاءات الحية التي تقود العاملين في طريق الدعوة والإصلاح، ولهذا نراه يركز كثيرًا في تفسيره للآيات القرآنية على مقاصدها الشرعية، وبيان أثرها في النفس والسلوك والحياة على مستوى الفرد والمجتمع، وهذا ما يُبيّن لنا البعد التربوي في تفسيره رحمه الله.

هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى نرى بُعدًا تربويًّا آخر حيث عالج ابن عاشور قضايا تربوية عديدة ومتنوعة، فقد ركّز على جوانب أساسية في تربية الشخصية المسلمة، شملت التربية العقائدية، والتربية الأخلاقية، والتربية الاجتماعية.

1- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية: 2006م، ص: 116.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص: 120.

وإليك بعض القضايا والمفاهيم التي تناولها ابن عاشور في تفسيره، وهي تُبيّن جانبًا من جوانب الإصلاح التربوي عنده.

- مفهوم التربية وعلاقتها بالإصلاح:

للتربية عند ابن عاشور معانٍ عدّة، منها: تبليغ الشيء إلى كماله تدريجًا[1]، وفي معناها التطبيقي والإجرائي -كما يرى ابن عاشور- تعني: "كفالة الصبي وتدبير شؤونه"[2]، وفي أصول الأخلاق أن التربية الصحيحة -في نظر ابن عاشور- هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها وبين خواطر الشرور؛ لأن الشرور إذا تسربت إلى النفوس تعذر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين: طريقة مباشرة، وطريقة سد الذرائع الموصلة إلى الفساد، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل، وأحسبها أنها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث: "إنَّ الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس"[(3)][(4)].

وعند تفسيره لقوله تعالى:﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[(5)]، يبيّن معنى التربية بقوله: "فالتربية تكملة للوجود، وهي وحدها تقتضي الشكر عليها، والرحمة حفظ للوجود من اجتناب انتهاكه، وهو مقتضى الشكر، فجمع الشكر على ذلك كله بالدعاء لهما بالرحمة"[(6)].

ثم بعد ذلك يذكر ابن عاشور -رحمه الله- المقاصد التربوية التي تكمن وراء الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم، ويحاول أن يجمعها في مقصدين اثنين، فيتحدث في تفسيره عن المقصد الأول، فيقول: "ومقصد الإسلام من الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم يخل إلى مقصدين: أحدهما نفساني، وهو تربية نفوس الأمة على الاعتراف بالجميل لصانعه، وهو الشكر، تخلقًا بأخلاق الباري تعالى في اسمه الشكور، فكما أمر بشكر الله على نعمة

1- ينظر: التحرير والتنوير: 166/1.

2- المصدر نفسه، 111/19.

3- أخرجه مسلم في: صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الحرام، رقم الحديث: (1559)، 1219/3.

4- التحرير والتنوير: 196/2.

5- سورة الإسراء، آية: 24.

6- التحرير والتنوير: 73/6.

الخلق والرزق أمر بشكر الوالدين على نعمة الإيجاد الصوري، ونعمة التربية والرحمة، وفي الأمر بشكر الفضائل تنويه بها، وتنبيه على المنافسة في إسدائها"[1].

أما المقصد الثاني، فيتجلى -في نظر ابن عاشور- في شدّ أواصر القرابة بين أفراد الأمة، وتربيتهم على المحبة والمودة، وهذا ما أشار إليه في تفسيره بقوله: "والمقصد الثاني عمراني وهو أن تكون أواصر العائلة قوية العُرى، مشدودة الوثوق، فأمر بما يحقق ذلك الوثوق بين أفراد العائلة، وهو حسن المعاشرة؛ ليُربّي في نفوسهم من التحاب والتواد ما يقوم مقام عاطفة الأمومة الغريزية في الأم ...، وفي هذا التكوين لأواصر القرابة صلاح عظيم للأمة، تظهر آثاره في مواساة بعضهم بعضًا، وفي اتحاد بعضهم مع بعض، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [2][3].

- أهمية المربّي المصلح:

اهتم الإسلام بحال المربّي اهتمامًا كبيرًا؛ لما له من دورٍ في إصلاح الأمة والارتقاء بها، وزرع المحبة والخير والصدق بين أفرادها، فعُني الإسلام بإصلاح المرأة؛ لكونها المربية الأولى، وهي نصف النوع الإنساني، وهذا ما أكّده ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [4]، وذلك بعد أن ذكر الحقوق والواجبات المنوطة بالمرأة، وأن كل ذلك منظور فيه إلى تحقيق قوله تعالى:﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ قال: "ودين الإسلام حَرِيٌّ بالعناية بإصلاح شأن المرأة، وكيف لا، وهي نصف النوع الإنساني، والمربية الأولى، التي تفيض التربية السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولًا لم تمسها وسائل الشر، وقلوبًا لم تنفذ إليها خراطيم الشيطان، فإذا كانت تلك التربية خيرًا، وصدقًا، وصوابًا، وحقًّا، كانت أول ما ينتقش في تلك الجواهر الكريمة، وأسبق ما يمتزج بتلك

1- التحرير والتنوير: 73/6.

2- سورة الحجرات، آية: 13.

3- التحرير والتنوير، 74/6.

4- سورة البقرة، آية: 228.

الفطر السليمة، فهيأت لأمثالها، من خواطر الخير، منزلا رحبا، ولم تغادر لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبًّا.

ودين الإسلام دين تشريع ونظام؛ فلذلك جاء بإصلاح حال المرأة، ورفع شأنها؛ لتتهيأ الأمة الداخلة تحت حكم الإسلام إلى الارتقاء وسيادة العالم"[1].

وعند تفسيره لقوله تعالى:﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[2]؛ يبيّن ابن عاشور دور المربّي ومدى تأثيره في الآخرين وتأثرهم به فيقول: "ومعنى: وأنبتها نباتًا حسنًا: أنشأها إنشاءً صالحًا، وذلك في الخلق ونزاهة الباطن، فشُبِّه إنشاؤها وشبابُها بإنبات النبات الغض على طريق الاستعارة ... عدّ هذا في فضائل مريم؛ لأنه من جملة ما يزيد فضلها؛ لأن أبا التربية يكسب خلقه وصلاحه مرباه"[3].

- شمولية الإصلاح التربوي وعمومه:

إذا نظرت في تفسيره لقوله تعالى:﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[4]، ووقفت عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾[5]، وتأملت في هذا التعبير القرآني وما يحمله من معانٍ تربوية عظيمة، فسيتضح لك كيف أطلق الله -عز وجل- لفظ الإصلاح ولم يقيده؛ ليشمل جميع جوانب الإصلاح، لا خصوص إصلاح ذواتهم فقط، وهذا ما أشار إليه ابن عاشور في تفسيره بقوله: "جميع الإصلاح، لا خصوص إصلاح ذواتهم، فيشمل إصلاح ذواتهم -وهو في الدرجة الأولى-، ويتضمن ذلك إصلاح عقائدهم وأخلاقهم بالتعليم الصحيح والآداب الإسلامية ومعرفة أحوال العالم، ويتضمن إصلاح أمزجتهم بالمحافظة عليهم من المهلكات والأخطار والأمراض وبمداواتهم، ودفع الأضرار عنهم بكفاية مؤنهم من الطعام واللباس والمسكن بحسب معتاد أمثالهم، دون تقتير ولا سرف، ويشمل إصلاح أموالهم بتنميتها وتعهدها وحفظها"[6].

1- التحرير والتنوير: 401/6.

2- سورة آل عمران، آية: 37.

3- التحرير والتنوير: 235/3.

4- سورة آل عمران، آية: 37.

5 - سورة البقرة، من الآية: 220

6- التحرير والتنوير: 356/1.

فانظر كيف استفاد ابن عاشور من التعبير القرآني للتركيز على المقاصد التربوية للآية الكريمة، ولو قيل (إصلاحهم)، لتوهم قصره على إصلاح ذواتهم فقط، وفاتت الإشارة إلى المعاني التربوية التي ذكرها ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية.

- الأصل الذي يعتمد عليه الإصلاح التربوي (أساس الإصلاح):

يرى ابن عاشور أن المقصد الأول للإصلاح أو أساس الإصلاح وطريقه يكمُنُ في اتباع الدين الإسلامي وما أوحى الله به (الفطرة الإلهية)، التي تستوجب كل صلاح وخير، وتفيد كل كمال، ولا تفضي إلى فساد، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى:﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[1]، ما نصه: "وكانت أصوله مبنية على الفطرة، بمعنى ألاّ تكون ناظرة إلا إلى ما فيه الصلاح في حكم العقل السليم، غير مأسور للعوائد ولا للمذاهب، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2][3].

ويدخل في أصل الفطرة -كما يرى ابن عاشور- الآداب، والأخلاق، والقيم والمبادئ التربوية التي نادى بها الإسلام، وألزم بها أتباعه، وقد كانت سبباً في جعل الإسلام ديناً صالحاً لجميع الأمم وفي جميع العصور، فيقول في تفسيره للآية: "ويدخل في الفطرة الآداب العتيقة التي اصطلح عليها كافة عقلاء البشر، وارتاضت نفوسهم بها، إذا كانت تفيدهم كمالًا، ولا تفضي إلى فساد، وذلك أصول قواعد حفظ النسب والعرض خاصة، فبهذا الأصل: أصل الفطرة، كان الإسلام ديناً صالحًا لجميع الأمم في جميع الأعصر"[4].

ويقرر ابن عاشور في تفسيره أن هذا الأصل(أصل الفطرة) يتجلى في مظاهر عديدة، تكون خادمة له ومهيئة جميع الناس لقبوله، وقد ذكر من بين هذه المظاهر أن الإسلام جمع بين إصلاح النفوس بالتزكية، وبين إصلاح نظام الحياة بالتشريع، فيقول في تفسيره للآية: "المظهر الثاني: جمعه بين إصلاح النفوس بالتزكية، وبين إصلاح نظام

---

1 - سورة آل عمران، الآية: 19.

2- سورة الروم، الآية: 30.

3- التحرير والتنوير: 193/2.

4- المصدر نفسه: 194/2.

الحياة بالتشريع، في حين كان معظم الأديان لا يتطرق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفّه حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفا إلى المواعظ والعبادات، وقد قرن القرآن المصلحتين في غير ما آية؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (1) (2).

ويتجلى أصل الفطرة أيضًا -كما يذكر ابن عاشور في تفسيره للآية- في العمل بوصايا الدين ما أمكن، وفي ذلك يقول: "المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها، وفي أصول الأخلاق أن التربية الصحيحة هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها وبين خواطر الشرور؛ لأنَّ الشرور إذا تسربت إلى النفوس تعّذر أو عَسُر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين: طريقة مباشرة، وطريقة سد الذرائع الموصلة إلى الفساد، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل، وأحسبها أنها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث: "إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس"[3"4".

- **وسائل الإصلاح التربوي (ركائز الإصلاح):**

إن حركة الإصلاح -في نظر ابن عاشور- لا بد أن تكون مستندة إلى معرفة وإلى تفقه في الدين، ووقوف على خفاياه وأسراره، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (5)، فالآية -كما يرى ابن عاشور- أصلٌ في وجوب طلب العلم على مجموعة من المسلمين وجوبا على الكفاية، وذلك بمقدار ما تتوقف عليه إقامة الشريعة ومصالح الأمة، بحيث يتقلص من دونه سلطانها، فيقول في تفسيره: "ولذلك كانت هذه الآية أصلًا في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوبًا على الكفاية؛ أي: على المقدار الكافي لتحصيل المقصد من ذلك

1- سورة النحل، آية: 97.

2- التحرير والتنوير، 2/194-195.

3- سبق ذكره.

4- التحرير والتنوير، 2/196.

5- سورة التوبة، آية: 19.

الإيجاب، وأشعر نفي وجوب النفر على جميع المسلمين وإثبات إيجابه على طائفة من كل فرقة منهم بأن الذين يجب عليهم النفر ليسوا بأوفر عددا من الذين يبقون للتفقه والإنذار، وأن ليست إحدى الحالتين بأولى من الأخرى على الإطلاق فيُعلم أن ذلك منوط بمقدار الحاجة الداعية للنفر، وأن البقية باقية على الأصل، فعُلم منه أنّ النفير إلى الجهاد يكون بمقدار ما يقتضيه حال العدو المغزو، وأن الذين يبقون للتفقه يبقون بأكثر ما يستطاع، وأن ذلك سواء"[1].

ويؤكد ابن عاشور في تفسيره للآية أن طلب العلم وتعليمه للأمة مقصد عظيم من مقاصد الإسلام، وذلك لإصلاح العقيدة والتفكير والعمل، فيقول في تفسيره: "وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة، وتكوين جماعات بعلم الدين، وتثقيف أذهان المسلمين؛ كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها"[2].

ويقرر ابن عاشور في تفسيره للآية أن فريضة التعليم ليست بأقل مكانة عند الله من فريضة الغزو والجهاد، من حيث إن كليهما -عموما- يقوم بواجب شرعي للدفاع عن الدين وحفظه، وهذا ما عناه في تفسيره بقوله: "من أجل ذلك عقب التحريض على الجهاد بما يُبيّن أن ليس من المصلحة تمحض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاة أو جندًا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله، من حيث إن كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده؛ لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها؛ إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان"[3].

ويستشهد ابن عاشور بوقائع تاريخية حدثت، تؤكد ما ذهب إليه من ضرورة الجمع بين الأمرين: (الغزو والتعليم)، بحيث لا يمكن الاستغناء عن أحدهما في بناء الدولة

1- التحرير والتنوير: 61/5.

2- المصدر نفسه: 59/5.

3- التحرير والتنوير: 61/5.

وإقامة الدين، وفي هذا يقول: "ولذلك لم يثبت ملك اللمتونين[1] في الأندلس إلا قليلا حتى تقلص، ولم تثبت دولة التتار إلا بعد أن امتزجوا بعلماء المدن التي فتحوها، ووكلوا أمر الدولة إليهم"[2].

ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس علوم الدين، وكل ما يحتاجونه لمعرفة الحق من الباطل، والخطأ من الصواب، وهذا ما أشار إليه ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى:﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم﴾ حيث قال: "فالإنذار هو الموعظة، وإنما اقتصر عليه؛ لأنَّه أهم؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده، ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وذلك بأداء العالم بث علوم الدين للمتعلمين"[3].

ويؤكد ابن عاشور في نهاية تفسيره للآية الكريمة أن ارتقاء الأمة في درج الكمال لا يكون إلا بوفرة علمائها، وأن اضمحلال الأمة لا يكون إلا باضمحلال علمائها، ويستشهد على ذلك بحديث البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من أشراط الساعة أن يظهر الجهل ويقل العلم"[4][5].

وهكذا نرى ابن عاشور في تفسيره لهذه الآيات -وغيرها كثير- يحاول أن يضع منهجا تربويا متكاملًا، يهدف من خلاله إلى الإصلاح الشامل لكل نواحي الحياة الفكرية، والاجتماعية، والنفسية، والاقتصادية...، ولولا ضيق المقام وخشية الإطالة لذكرت مزيدًا من تفسيره، الذي حاول فيه أن يُبيّن أهمية الجانب التربوي في التفسير، وأنه يجب أن ننظر إلى آيات القرآن وفق رؤية تربوية، وأن نفسرها ضمن هذا

1- اللمتونيّون: هم المرابطون وينسبون إلى قبيلة لمتونة بالمغرب، إذ تحركوا إلى غرناطة سنة: 483هـ لمقاتلة أميرها عبد الله ابن بلقين بن باديس بن حبوس الزيري، وقد انتهت هذه الحركة، وانقرض أمرهم عام: 540هـ. ينظر: تاريخ المغرب العربي، لسعد زغلول عبد الحميد، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، ص: 169.

2- التحرير والتنوير: 59/5.

3- المصدر نفسه: 62/5.

4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: رفع العلم وظهور الجهل، رقم الحديث 80، 43/1، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة.

5- ينظر: التحرير والتنوير: 64/5.

الاتجاه(الاتجاه التربوي) بوصفه ينسجم مع الهدف الأساس من نزول القرآن، وهو الهداية.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث أودّ أن أسجّل جملة من النتائج التي توصلت إليها، والفوائد التي وقفت عليها، وهي فيما يلي:

1- إن القرآن الكريم يحوي منهجًا تربويًا كاملًا، صالحًا لكل عصر وجيل، وهو الأصلح للبشر.

2- ضرورة رجوع الدارسين والباحثين إلى القرآن الكريم؛ لاستنباط ما فيه من مضامين تربوية عظيمة، والاستعانة في ذلك بتفاسير علماء الأمة العظام الذين يمتلكون المهارات الأساسية للتعامل مع كتاب الله قراءةً وفهمًا وممارسة.

3- إن اهتمام علماء التفسير بالجانب التربوي في تفسير القرآن الكريم في ثنايا تفاسيرهم لا يقل أهمية عن عنايتهم بالجوانب الأخرى، من حيث الاتجاهات اللغوية والفقهية والعقلية والعقدية وغيرها.

4- إن أهمية التفسير التربوي تبرز في كونه ينسجم مع الهدف الأساس من نزول القرآن الكريم وهو الهداية والإرشاد.

5- الاهتمام بغرس القيم الأخلاقية وتنميتها في جميع مراحل التعليم من خلال ربطها بالعقيدة الإسلامية والعبادات، والمعاملات.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا- القرآن الكريم.

ثانيًا- الكتب:

1- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية: 2006م.

2-الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة: 1992م.

3-أليس الصبح بقريب، لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة: 2010م.

4- تاريخ المغرب العربي، لسعد زغلول عبد الحميد، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية.

5- تفسير التحرير والتنوير، تأليف الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

6- التفسير ورجاله، لمحمد الفاضل ابن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى: 2008م.

7- تونس وجامع الزيتونة، لمحمد الخضر حسين، دمشق، المطبعة التعاونية: 1972م.

8- الحركة الأدبية والفكرية في تونس، لمحمد الفاضل ابن عاشور، الدار التونسيه، تونس: 1972م.

9- شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة، لمحمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس: 2008م.

10- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة: الثالثة، د. ت.

11- صحيح مسلم، صححه وخرج أحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.

12- عيون الأبصار، لمحمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر.

13- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، الطبعة: الثالثة: 2011م.

ثالثًا- المجلات:

14- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي، لمحمد مسعود جبران، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد: الخامس: 1988م.